

اللغو ، ولا بضاعة من الزخرف يراد بها اللهو، وإني لموقن أن الجاحظ لو استطاع أن ينظر إلينا من عالمه الآخر ، لما أنكر كثيراً .. من الأساليب التي ينشئ بها كتاب اليوم أفكارهم .. بل إنه لفرط صدقه في تصوير نفسه وعصره ، وصراحته في التعبير عن المشاعر الإنسانية الثابتة فيه وفي الناس .. قد لا يرى إلا تغييراً يسيراً في المحيط الأدنى ..

بل في كل مكان وزمان ، يوجد به أدب وأدباء ، وكتب ومؤلفون . ولنستمع إليه إذ يقول بلغته التي كان يكتب بها منذ عشرة قرون :
« ..إني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة .. وأنسبه إلى نفسي .. فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً للملك ، معه المقدر على التقديم والتأخير ، والخط والرفع والترهيب والترغيب ، فإنهم يحتاجون عند ذلك احتياج الإبل المغتلمة ، فإن أمكتهم الحيلة من إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له ، فهو الذي قصده وأرادوه .. وإن كان السيد المؤلف له الكتاب تحريراً نقاباً وحاذقاً فطنا ، وأعجزتهم الحيلة .. سرقوا معاني ذلك الكتاب ، وألقوا من أعراضه وحواشيه كتاباً ، أهده إلى ملك آخر . وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً إليّ وموسوماً بي .. وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع .. فيأتيني أولئك القوم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا